مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(أعمال الرسل ٥: ١٢–٢٠)

في تلك الأيامِ جَرَتْ على أيدِي الرسُلِ آياتٌ وعجائبُ كثيرةٌ في الشعب. (وكانوا كلُّهم بنفسٍ واحدةٍ في رِواقِ سُليمان* ولم يكن أحدٌ من الآخرين يجترئُ أن يُخالِطَهم. لكن كان الشعبُ يُعظِّمُهم* وكان جماعاتٌ من رجالٍ ونساءٍ ينضمُّون بكثرةٍ مؤمنينَ بالرب)* حتى إنَّ الناسَ كانوا يخرُجونَ بالمرضى إلى الشوارعِ ويضعونَهم على فُرُشٍ وأَسِرَّةٍ ليقعَ ولو ظِلُّ بُطرُسَ عند اجتيازه على بعضٍ منهم* وكان يجتمعُ أيضاً إلى أورشليمَ جمهورُ المدن التي حولها يحمِلون مرضى ومُعذَّبينَ من أرواحٍ نجِسة. فكانوا يُشفَونَ جميعُهم* فقام رئيسُ الكهنةِ وكلُّ الذينَ معه وهم من شيعةِ الصدُّوقيينَ وامتلأوا غَيرةً* فألقَوْا أيديَهم على الرسُلِ

أحد توما

لقد شكّل توما الرسول في وجدان الكنيسة مثالاً يُحتذى في ما يواجه الإنسان عندما يسمع البشارة بموت الرب يسوع على الصليب وقيامته من بين الأموات دون أن يراه، ما يواجهه من شك وصراع داخلي بين قبول البشارة بالإيمان أو رفضها عقلياً. ولكن الرب قادر أن يزيل كل شك من القلب، وهو يطوّب كل من يؤمن دون أن يرى. ومن خلال ما حدث مع الرسول توما اعتبرت الكنيسة في صلواتها بأنه يُقبل بقلوب المؤمنين إلى المعرفة، وبإيمانه يعلم الكل بآلام الرب يسوع وقيامته فيهتفون معه «ربي وإلهي المجد لك» (من صلاة غروب أحد توما).

في قنداق القديس رومانوس، الذي نقرأ منه في أحد توما المقدمة والبيت الأول، وَصْفٌ مفصَّل لذاك الصراع الداخلي الذي يواجهه الإنسان بين الشك والإيقان ببشارة القيامة من جهة، ورحمة الرب ومحبته للبشر في مواجهة شك الإنسان من جهة أخرى.

يبدأ القديس رومانوس بالمقارنة بين يد توما التي لامست جنب السيد دون أن تحترق وبين العلية الملتهبة، اللتين حفظهما الله نفسه ليُظهِر مجده. بلمسها جنب السيد صارت يد توما بمثابة قلم كاتب سريع الكتابة (مز ٤٤:٢٠) يكتب ليعلّم المؤمنين من أين ينبع الإيمان. ولكن لماذا شك توما ولم يصدق إعلان التلاميذ بأن الرب قد قام وبأنهم قد رأوه؟

يصوِّر لنا القديس رومانوس صراع توما الداخلي وكأني بالرسول يقول للتلاميذ: «إذا كان الرب قد قام حقاً فلماذا ما زلتم مختبئين ولم تعلنوا البشارة على الملأ؟ وإذا كان قد ظهر لكم حقاً فلماذا لم يسأل عني، أنا الذي كنت أريد أن أموت معه»؟

عاد الرب فدخل إلى التلاميذ والأبواب مغلقة ووقف في وسطهم. حينذاك اضطرب توما في داخله، وتحيَّر في ما سيقدّمه من جواب عن شكّه. لقد كان شكّه في الحقيقة ناتجاً من حسده من رفقائه التلاميذ الذين كانوا مبتهجين وفرحين نتيجة مشاهدتهم للرب القائم من بين الأموات.

إلا أن الرب العارف القلوب والكلى، لما رأى توما مكسور القلب، تحنَّن عليه وقال له: هاتِ يدك إلى هنا. لماذا شككت يا قليل الإيمان؟ إنه لأجلك ولأجل أمثالك رقدت في القبر، وأنت قدَّمتَ لي الشك عوض الشكران.

أمام هذه الأقوال حاول توما إلقاء اللوم على رفقائه، فكيف كان سيصدِّقهم هم الذين أنكروا الرب في وقت الشدّة. إلا ان الرب ذكّره بأنه هو أيضاً تركه يتألم وحده، وطلب إليه أن يكف عن

العدد ١٨/٢٠٠٨

الأحد ٤ أيار

أحد الرسول توما

تذكار القديسة الشهيدة بيلاجيا

اللحن الأول

إنجيل السَحَر الأول

وجعلوهم في الحبس العام* ففتح ملاكُ الربِّ أبوابَ السِّجنِ ليلاً وأخرجهم وقال* أمضُوا وقِفوا في الهيكلِ وكلّموا الشعبَ بجميعِ كلماتِ هذه الحياة.

الإنجيل

(يوحنا ٢٠: ١٩-٣١)

لما كانت عشيَّةُ ذلكَ اليومِ وهو أولُ الأسبوعِ والأبوابُ مُغلَقةٌ حيثُ كانَ التلاميذُ مجتمعينَ خوفاً من اليهودِ جاءَ يسوعُ ووقف في الوسْطِ* وقال لهم السلامُ لكم* فلما قال هذا أراهُم يديهِ وجنبَهُ. ففرح التلاميذُ حينَ أبصروا الربَّ* وقال لهم ثانيةً السلامُ لكم كما أرسلني الآبُ كذلك أنا أرسِلُكم* ولما قال هذا نفخ فيهم وقال لهم خُذوا الروحَ القدس* مَن غفَرتُم خطاياهم تُغفَرْ لهم ومَن أمسَكْتم خطاياهم أُمسِكَتْ* أما توما أحدُ الإثنَي عَشَرَ الذي يُقالُ له التوأم فلم يكنْ معهم حين جاءَ يسوع* فقال له التلاميذُ الآخرونَ إنَّنا قد رأينا الربَّ. فقال لهم إن لم أعايِنْ أثَرَ المساميرِ في التبريرِ وأن يلمسه فقط. عند ذاك رفع توما صلاةً إلى الذي منحه شرف لمسه طالباً منه أن يتحمَّل وقاحته وأن يغض النظر عن شكّه ويقبله مثل نازفة الدم ولا يحترق بلمسه جنبه.

أجابه الرب بأنه لا يحرق الذين له فلا داعي للخوف، فقد حفظ سابقاً الفتية الثلاثة في الأتون في بابل، وقَبِلَ الزانية التي أفاضت الطيب على رأسه. توما من جهته سيقدِّم إيمانه الذي يحوي نعمة تفوق رائحة الطيب «فالآن إذاً أيها السيد، بما أنك تعلم أني أفتح لك قلبي، فإنك ترى أفكاري عالِماً بنيّاتي. غير أني أقول لك: لقد عرفتني مسبقاً أنا المؤمن بك، فإني أريد أن أرى جنبك لأعلم كل الناس، وسألمس عظامك وآثار المسامير لأكرز بك ربًّا وإلهاً، بما أنك رب المجد احتملت الصلب داعياً الكل أن يهتفوا نحوك بإيمان وقلب طاهر: «أنت هو ربي وإلهي»».

عظة الفصح

«المسيح قام ـ حقاً قام، فلنسجد لقيامته ذات الثلاثة الأيام. المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت ووهب الحياة للذين في القبور.

أيها الأحبة، اليومَ يومُ القيامة. إنه يوم النور بالنسبة للمسيحي الذي يؤمن بالإله المتجسد الذي «كان في البدء عند الله. به كان كل شيء وبغيره ما كان شيءٌ مما كان. فيه كانت الحياة وحياتُه كانت نورَ الناس... إلى بيته جاء فما قَبِلَه أهلُ بيته. أما الذين قَبِلوه، المؤمنون باسمه، فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أبناء الله»، أولاداً للنور.

المسيح إلهنا، الإله قبل الدهور، أتى إلينا ليرفعنا من الحضيض، من حضيض الخطيئة والآلام والتعاسة، من حضيض القلق والشدّة والضيق، من حضيض التيهان في هذا العالم. أتى إلينا ليرفعنا فوقها كلّها. بدءاً إتحد بنا، بكل آلامنا وأوجاعنا، بجوعنا وعطشنا وتعبنا وحزننا، بكل ما فينا ما عدا الخطيئة. إتحد بنا ليميت ضعفاتنا كلّها مع الخطيئة، على الصليب، ويعيدنا إلى ما كنا عليه في الفردوس، في وحدة مع الله، في رعاية الله وعنايته، عيوننا شاخصة إليه وقلوبنا متحدة بمشيئته. أتى متجسداً بعد أن عصا الإنسانُ اللهَ وظن نفسَه إلهاً. تواضع الربُ أمام الإنسان وسأله أن يأتي إليه، منعِماً عليه بمحبة لا حدود لها، جوهرها الموت من أجل الحبيب، من أجل إعادته إلى النور والحياة.

القيامة هي هذا الفعل الإلهي الذي ورثه كل مؤمن لكي ينتصر على كل ضعف ومرض وألم وحزن، بالمسيح يسوع. كثيرون منا، أولئك الذين يحبّون الله، يتألّمون بل يختبرون القيامة في كل ساعة وكل يوم. وكما قال الرسول «من أجلك نحن نعاني الموت طول النهار... ولكننا في هذه الشدائد ننتصر كل الإنتصار بالذي أحبنا» (رو ٨: ٣٦-٣٧).

القيامة بالنسبة للمسيحي هي جوهر حياته. هي قوّته. لذلك يقول بولس الرسول إن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطلٌ إيماننا.

الإنسان إذاً مدعوٌ إلى العودة إلى الله، إلى العزة الإلهية، إلى القوة الإلهية. كل قوة أرضية زائلة والقوى الأرضية تقهر الإنسان. وهي تقهر أولاً القوي ومدّعي القوة لأنه يدخل هلاكَ الكبرياء وعتمتها. القوي إنسانٌ متكبّر. لو كان متواضعاً لم نكن نرى قوّته إلاّ في المحبة. المتواضع ينحني أمام آلام أخيه ويرفعه إلى الرجاء. الأقوياء متكبّرون وهم سبب كل هلاك فيهم وفي الناس.

الإنسان مدعوٌ من الله إلى التألّه ومعرفة معنى القيامة. في كل يوم نجابه الصعوبات والرب يذكرنا أننا أبناء القيامة. بولس الرسول يقول في رسالته إلى أهل فيليبي إني أحسب كلَ شيء خسارة، نفاية، ولا أحتاج إلاّ إلى معرفة ربي يسوع المسيح. أحتاج أن أعرف قوة قيامته، أن أشترك في آلامه، أن أتشبّه بموته لعلّي أبلغ إلى قيامة الأموات. المؤمن يجب أن

يديهِ وأضَعْ إصبعي في أثَرِ المسامير وأضَعْ يدي في جنبهِ لا أؤمن* وبعد ثمانيةِ أيامٍ كان تلاميذُه أيضاً داخلاً وتوما معهم فأتى يسوعُ والأبوابُ مُغلَقةٌ ووقفَ في الوسْط وقال السلامُ لكم* ثم قال لتوما: هات إصبَعَكَ إلى هنا وعاينْ يديَّ وهاتِ يدَكَ وَضَعْها في جنبي ولا تكُنْ غيرَ مؤمنٍ بل مؤمناً* أجاب توما وقال له: ربّي وإلهي* قال لهُ يسوع: لأنكَ رأيتَني آمنتَ، طوبى للذينَ لم يَرَوا وآمنوا* وآياتٍ أُخَرَ كثيرةً صنعَ يسوعُ أمام تلاميذِه لم تُكتَبْ في هذا الكتاب. وأمَّا هذه فقد كُتِبَتْ لتؤمنوا بأنَّ يسوعَ هو المسيحُ ابنُ الله. ولكي تكونَ لكم إذا آمنتم حياةٌ باسمِه.

تأمل

«ثم قال لتوما: هات اصبَعَك إلى هنا وعاينْ يديَّ وهاتِ يدكَ وضَعْها في جنبي ولا تكن غيرَ مؤمنٍ بل مؤمناً» (يو ٢٠: ٢٧).

يا لمحبة المسيح للبشر التي لا تحدّ. فإنه أجاب توما على ما كان قاله للتلاميذ مبيّناً انه كإله عارف القلوب وعلاّم يتشبّه بالمسيح الذي هو معلّمه والقدوة. المسيح حياتي لذا أسعى أن أبقى في إثره ولا أنظر إلاّ إليه ولا ألتفت إلى الوراء بل أنسى ما هو ورائي وأسعى إلى ما هو أمامي.

خبرة معرفة قيامة المسيح موجودة في مَن يؤمن به ويحبّه. هذا يعرف معنى الرجاء. من كان في المسيح تعمل قوّة القيامة فيه. من يعرف المسيح ومعنى آلامه وموته هو دائماً مستعد للموت من أجل من يحب، وكل إنسانٍ حبيب بالنسبة لنا. إذا كنتَ مستعداً أن تختبر الموت أي أن تميتَ ذاتك والأنا، تعرف حينئذٍ ما معنى القيامة.

الله قد أقام ابنه وسيقيمنا نحن بقوّته لأننا أعضاء في جسده، في جسد المسيح. وإذا كان المسيح قد قام فكل عضو فيه سيقوم.

القيامة لا تنحصر في الإنعتاق من الموت إنما هي أيضاً التحرّر من كل ألم. والألم يلازم المحبة. المسيحي الحقيقي يتألّم لأنه يحب. من لا يحب يكفر بالله إذا ذاق الألم. المسيحي لا يكفر بل يشكر الله لأنه يشارك المتألّمين آلامهم ويشاطرهم أوجاعهم. الرب دخل آلام الإنسان وموته لأنه يحبه. وقد أظهر لنا يسوع أن آلام المحبة لها نهاية في القيامة. الإنسان المحب يعرف أن صليبه هو أداة قيامته وأن في الصليب رجاء القيامة. المحبّة المصلوبة تتحوّل إلى الإنتصار، إلى القيامة والإتحاد بحياة الرب. لذلك المؤمن قائم في الرجاء. المؤمن يرجو في كل حين، والرجاء هو أن تؤمن بما سيأتي، «لأننا بالرجاء خَلَصنا ولكن الرجاء المنظور ليس رجاءً، لأن ما ينظره أحدٌ كيف يرجوه أيضاً؟ ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر» (رو ٨: ٢٤–٢٥).

المؤمن يسلك بالإيمان لا بالعيان (٢ كور ٥: ٧)، الإيمان المرتكز على المحبة، محبته ليسوع. هذه المحبّة هي لُبّ حياتنا وهي التي تشكل سيرتنا مع الناس لأنها نازلة من فوق، والمخلص يسوع المسيح هو الذي سيغيّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده، جسد القيامة.

يقول يوحنا الحبيب في رسالته الأولى: «نحن نحبّه لأنه هو أحبّنا أولاً. إن قال أحدٌ إني أحبُّ اللهَ وأبغض أخاه فهو كاذبٌ لأنّ من لا يحبّ أخاه الذي أبصره، كيف يقدر أن يحبّ الله الذي لم يبصره. ولنا هذه الوصية منه أن من يحبّ الله يحب أخاه أيضاً» (١٩:٤–٢١). مَن لا يحب أهل بيته كيف يستطيع أن يحب الغريب أو البعيد؟ المحبة هي السبيل الوحيد الذي يجعل الإنسان قادراً أن يرى مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة ويتغيّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد (٢ كور ٣: ١٨).

الله وحده هو ينبوع المحبة والرحمة والرأفات والصلاح والسلام. «الله الذي هو غني في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبّنا بها ونحن أموات بالخطايا، أحيانا مع المسيح... وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع» (أف ٢: ٤–٦).

نحن سنقوم جميعنا لأن يسوع قد قام. فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم. نحن نخصّ المسيح وإذا قَبِلنا المسيح علينا أن نسلك بحسب وصاياه وأن نكون متأصّلين فيه ومبنيين فيه وموطّدين في الإيمان كما قال بولس الرسول.

في هذا العيد المبارك علينا إذاً أن نبشّر بالحياة لا بالموت وإن كنا نعيش في جو لا نرى فيه إلا السواد والقتل (نسمع بالقتلى بالعشرات وكأن الإنسان لا معنى له)، والمحزن أن هذا يحصل باسم الله أحياناً. أنا لا أفهم كيف يستطيع قاتلٍ أن يقتل إنساناً فكيف إذا كان طفلاً؟

حياتنا عابقة بأخبار الموت والحروب والضحايا والإختبارات الذرّية (التي يقولون أنها لخير الإنسان لكنها في معظم الأوقات تقضي عليه)، وتبادل الإتهامات، ولا أحد يعرف من هو الصادق ومن هو غير الصادق.

الغيوب يعلم بكل ما جرى. ثم دعا توما لأن يجسّه مظهراً بذلك انه مستعدّ لأن يحتمل كل شيء حتى لأجل خلاص نفس واحدة فقط. وان قيل لماذا لم يسمح الرب لمريم المجدلية أن تلمسه، وفي ظهوره هذا قد دعا توما لأن يجسّه، فالجواب في ذلك جملة أقوال وهي: إما لأن المجدلية قد حداها إلى ذلك التطفّل فقط. أو لأنها قد هجمت عليه بجرأة وبدون تروّ. أو لأنها لم تكن مستحقة لأن تلمسه لأنها لم تكن بعد مطهّرة بنعمة الروح القدس التي حصل عليها المؤمنون بعد صعود المخلّص إلى أبيه. ولذا فقد قال لها «لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي» (يو ٢٠:١٧). وأما توما فبما انه كان يطلب أن يتحقق من أمر قيامته من الأموات وقد استحق قبلاً نعمة الروح القدس بالصوت السيدي القائل «خذوا الروح القدس» فقد دعاه وحثه على أن يجسه إذ قال له «هات إصبعك إلى ههنا وانظر يديّ وهات يدك وضعها في جنبي». فالإله المحب البشر أولاً أقنع توما بالبرهان الذي طلبه ثم نصحه قائلاً: «لا تكن غير مؤمن بل مؤمناً».

القديس نيكيفوروس ثيوطوكوس

نحن لا نشعر بالفرح وبالرجاء في بلدنا وهما من صميم إيماننا. يقول الرسول بولس إفرحوا بالرب كلّ حين وأيضاً أقول لكم إفرحوا (في ٤:٤). والفرح وليد المحبة. المسيحي الحقيقي يحب ولا يقتل. عندما استلّ أحدُ الذين كانوا مع يسوع، ليلة أُسلم، سيفه وضرب عبدَ رئيس الكهنة فقطع أذنه قال له يسوع «رُدّ سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون» (متى ٢٦: ٥٢). نحن لا نحارب لا بالسيف ولا بغيره ولا نقتل ولا نميت الآخرين لكي نعيش بل نموت من أجل الآخرين. نحن لا نؤمن بثقافة الموت. الحرب حرب والموت موت. الموت المبرَّر هو أن أموت من أجل غيري، لكي يحيا، وعليّ أن أدرّب نفسي على هذا الأمر. في إيماننا عندما تقتل عليك أن تتوب. لذا اقول لكل من يؤمن بالله أنه علينا أن نبشر بالحياة لا بالموت، بالنور لا بالظلمة، بعدم الفساد لا بالفساد الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتنا، لذلك من الصعب أن يدين إنسانٌ إنساناً في بلدنا لأن من يدين في معظم الأحيان هو ملطّخ أيضاً.

علينا أن نبشر بالرجاء لأن القيامة هي الحرية، هي الإنتصار والفرح وأداتها صليب المحبة.

صلاتنا أن ينزل الملاك ويدحرج عن قلوبنا كل قساوة وأن يساعدنا على فتح حواسنا المغلقة. قلوبكم هي مسكن الله، فيها يستقر وفيها يستريح. فيها يسود ويملك. لا تجعلوا قلوبكم قبوراً مبيّضة ظاهرها جميل وباطنها ممتلئ بعظام الموتى وبكل فساد (متى ٢٣:٢٧) كما قال الرب يسوع للكتبة والفريسيين، ولا تتظاهروا بالبرّ والإستقامة لأنكم من داخل مشحونون بالرياء والإثم (متى ٢٣: ٢٨).

عيدُنا اليوم يدعونا أن نرجو، أن نحبّ بعضنا بعضاً كما أحبّنا المصلوب، أن يبحث كلٌّ منا عن مصلحة الآخر، عن مصلحة المواطن الذي هو فرد من العائلة التي شاءها اللهُ لنا. نحن نقطن في بيت واحد هو هذا الوطن الصغير. ليتخطَّ الجميعُ أنفسَهم ومصالحهم وأية مصلحة خارجية من أجل إنقاذ هذا البيت العائلي، هذا الوطن وساكنيه. لنحرّر وطننا. لبنانٍ أسير أبنائه فليعملوا جميعهم، يداً بيد، من أجل إنقاذه. العالم مشغول بنا ونحن غافلون عن المحبة التي وحدها تنتشلنا من قعر الهوة التي رمينا وطننا فيها، غافلون عن أولادنا الذين يفارقوننا وهم يحملون النبوغ إلى حيث يذهبون، غافلون عن مصلحة لبناننا الذي نتقاسمه كقطعة حلوى، عوض ترميم أجزائه. في كل مؤتمر في العالم يتحدثون عن لبنان ويبحثون أموره ونحن نتلهى بالشتائم وتحدّي الواحد للآخر والشعب يعاني والوقت يضيع.

نتكلّم عن الحوار ولكن كيف نتحاور ولغة التخاطب التي نسمعها بلغت أدنى الدركات، والشك وعدم الثقة والخوف من الآخر متمكنة من النفوس. إسمعوا الأخبار واقرأوا الجرائد تدركون ما أقول. نحن نمتهن الكلام الرخيص والشتائم ولا نحترم المقامات.

لا نريد الإساءة إلى أحد ولكننا بتنا نتساءل في هذا الجو الذي نعيش فيه هل كلمة «مسؤولية» ما زالت موجودة في قاموس المسؤولين وربما أكثر المواطنين؟ المسؤول إنسان لا ينام إن لم يقم بواجبه، وضميرُه بوصلته في حياته، يؤنبّه إذا أخطأ ويوّعيه إذا تعثر. وكيف نتساءل عن المسؤولية وقد أصبحنا نشك في انتماء الكثيرين إلى هذا البلد؟ ولا نرى إلا عدم المحبة وعدم الثقة وانعدام الوطنية. شعبنا بحاجة إلى أن يتعلّم الوطنية.

صلاتنا أن ينمّي الله محبةَ اللبنانيين بعضهم لبعض وأن يزيدهم فيها سموا لأنّ المحبة وحدها لا تنتشل هذا البلد مما هو فيه وتطلقه إلى مستقبل أفضل. صلاتنا أن يخرج هذا الوطن من قبره، أن يُطلَقَ من أسره، أن يشفى من آلامه التي يتخبّط فيها. ودعاؤنا أن يحظى بقيامة مباركة مرجوّة عند النفوس البارة آمين».